**المحاضرة السابعة**

**تمهيد:**

ارتبط فعل التجنيس بملاحظة النصوص الأدبية، والبحث عن أوجه التشابه والاختلاف بينها، فقادالنقاد هذا العمل إلى التجريد والتنظير والمقارنة بين الظواهر النصية تنميطا وتجنيسا وتنويعا، ومن ثم انتقل الجنس الأدبي من مرحلة النظرية إلى مرحلة التقنين المؤسساتي، ومن هذه اللحظة بالذات، بدأت الإنسانية في تنظيم ذاكرتها، وترتيب أدواتها المعرفية والعلمية والإبداعية إن نظرية، وإن تطبيقا.

1**/التناص و الثورة على النجنيس:**

إذا كانت الشعرية البنيوية تحترم الأجناس الأدبية، حيث تضع كل جنس على حدة تصنيفا وتنويعا وتنميطا، فتحدد لها قواعدها وأدبيتها التجنيسية، فإن "ما بعد الحداثة" لا تعترف بالحدود الأجناسية، فقد حطمت كل قواعد التجنيس الأدبي، وسخرت من نظرية الأدب،ومن ثم أصبحنا- اليوم- نتحدث عن أعمال أو نصوص أو آثار غير محددة، وغير معينة جنسيا.

ويعرف جاك ديريدا التفكيكية بأنها هي التي لا تؤمن بلغة واحدة، أي: تمن بلغات متعددة عبر آليات الاختلاف والتناقض والحوار والتقويض والتناص، ويعني هذا مدى التشديد على التعددية اللغوية والدلالية والثقافية، ويمكن القول: إن تفكيكية جاك ديريدا تفكيكية تعددية اختلافية، لا تؤمن بمنطق الوحدة، والانسجام، والكلية، والعرقية، والخصوصية، كما تأبى منطق الهيمنة والتمركز والتثبيت...

ولقد أصبح التناص، ولا سيما مع جوليا كريستيفا وجماعة ييل الأنجلوسكسونية، من أهم التصورات النظرية والتطبيقية التي اغتنت بها التفكيكية بصفة خاصة، و"ما بعد الحداثة" بصفة عامة، وخاصة أن التناص يعبر عن تعدد المعاني، واختلاف الدلالات، وتكرار النصوص والخطابات تناسلا وتوالدا، وبتعبير آخر، لم يقف التفكيك عند هذه الحدود، فقد اغتنى إثر اكتشاف التناص، ولم تعد آفاق الدلالة منظورة، فضلا عن ذلك، إن اكتشاف التكرارية من قبل ديريدا قد ألغى الفواصل بين النصوص الأدبية، ولما كانت النصوص متداخلة مع غيرها، يصبح مستحيلا حصر دلالتها.

ويقوم ليتش (**Leitch)** بتنظيم التكرارية ضمن نظرية طريفة، فيقول: "إن تاريخ كل كلمة في النص مضروبا في عدد كلمات ذلك النص، يساوي مجموع النصوص المتداخلة مع النص الأخير، قيد القراءة، ولتعذر تحديد تاريخ كل كلمة في النصوص السابقة، فإن النصوص المتداخلة لا حصر لها، ومن ثم فإن دلالتها لا يمكن الوقوف عليها لسعتها وتعددها".

وهكذا يرفض التفكيكيون نظرية الأجناس الأدبية رفضا مطلقا.

فهذا موريس بلانشو (**M. Blanchot)** يرفض مقولة الجنس الأدبي، وينكر مدى أهميتها، بمعنى أن العمل الأدبي لا يقبل.

ظهور نظريات ما بعد الحداثة، في الفترة الممتدة بين سنوات السبعين والتسعين من القرن الماضي، انبثقت مجموعة من المذاهب والتيارات الفكرية والأدبية ثائرة على نظرية الأجناس الأدبية تفكيكا وتقويضا وتشتيتا، مع مجموعة من الأسماء الغربية، مثل: جاك ديريدا، ورولان بارت، وموريس بلانشو، وجوليا كريستيفا... وهكذا يقول مويس بلانشو بأن "الأدب لا يقبل التفرقة بين الأنواع، ويرمي إلى تحطيم الحدود"، وهناك من يرى أن النص الأدبي يجب بالإضافة إلى التحرر من الأجناس والأنواع، أن يسعى إلى تضمين النظرية التي أنجته، وينبغي أن تتجه العناية كل العناية نحو عملية الإنتاج نفسها،إذ يتضمن في طياته عناصر الرفض والامتناع عن التصنيف، وقد لا يرغب في الوجود والتمظهر، ومن ثم فهو يحتوي على مكوناته البنيوية الخاصة به.

**2 .النقد العربي ونظرية الأجناس الأدبية**

كانت هناك اهتمامات كثيرة في الحقل الثقافي العربي القديم بعملية التجنيس والتصنيف الأدبي، فما نظرية الأغراض الشعرية (**مدح- فخر- هجاء- وصف...)** سوى دليل قاطع على اهتمام نقادنا العرب القدامى بعملية التجنيس، حيث ميزوا في البداية بين الشعر والنثر، وتحدثوا عن أفضلية كل واحد منهما، وخاصة في العصر العباسي، ثم شمروا عن سواعدهم للتمييز بين مجموعة من الأجناس والأنواع والأنماط الأدبية (الرسالة- النادرة- المقامة- الخطبة- الوصية- العتاب- الاعتذار- الحكاية- المثل- الأدب- الموعظة- النقد- الخبر- الحديث- الطرفة- النكتة- الأحجية- المناظرة...)، ونجد هذا الاهتمام أيضا عند الفلاسفة المسلمين أنفسهم (**الفارابي- وابن سينا- وابن رشد...)،** وبالضبط بعد ترجمة كتب أرسطو الفلسفية.

ومن جهة أخرى، فد اهتم النقاد والدارسون والمحدثون والمعاصرون بنظرية الأجناس الأدبية تأريخا وتعريفا وتنظيرا وتطبيقا، ومن بين هؤلاء طه حسين الذي أعاد النظر في تقسيم القدماء للكلام العربي إلى شعر ونثر، في كتابه (**من حديث الشعر والنثر)،** إذ ميز بين الشعر كجنس أدبي مستقل، وقسم الأجناس النثرية إلى قسمين رئيسيين هما: الخطابة والنثر الفني، بعد أن كان قد أشار إلى مجموعة من الأنواع النثرية المعروفة، كالخطابة، والتاريخ، والترسل، والمناظرات العلمية والفلسفية والدينية، والقصص الخاصة، وأيام العرب.

علاوة على ذلك فقد خصص الباحث المغربي عبد الفتاح كليطو نظرية الأجناس الأدبية بفصول متميزة ومركزة في كتابه (**الأدب والغرابة)،** وقد اعتمد عبد الفتاح كليطو، في عملية التجنيس، على نظرية التلفظ، بمعنى أنه يعتمد على تحليل علاقة المتكلم بالخطاب، ويعتني على سبيل الخصوص بمسألة إسناد الخطاب، وبما يترتب عن الإسناد من أنماط خطابية، ومن ثم يحدد كليطو أربعة أنماط خطابية:

"1-**المتكلم يتحدث باسمه**: الرسائل، والخطب، والعديد من الأنواع الشعرية التقليدية.

2- **المتكلم يروي لغيره**: الحديث، وكتب الأخبار...

3- المتكلم ينسب لنفسه خطابا لغيره.

4- المتكلم ينسب لغيره خطابا يكون هو منشئة وهنا حالتان: أما لا يفطن إلى النسبة المزيفة فيدخل الخطاب ضمن النمط الثاني، وأما يفطن إلى النسبة فيدخل الخطاب الأول، وكمثال نذكر "لامية العرب" التي أنشأها خلف الأحمر ونسبها إلى الشنفري".

أما عبد السلام المسدي في كتابه (**النقد والحداثة**)، فيرى أن قضية الأجناس الأدبية هي قضية مستوردة من الغرب، وأن العرب كانوا يعرفون الشعر والنثر ليس إلا، بمعنى أن "مقولة الأجناس دخيلة على قيم الحضارة العربية في مكوناتها الإبداعية، وهذه من ظواهر الخصوصيات المميزة، إذ لا يحكم لأمة من الأمم بتفوق حضاري إن هي عرفت لونا من ألوان الأدب، كما لا يحكم على حضارة أخرى بنقصان إن هي لم تعرفه، بل ليس بقادح في تاريخ العرب أن تصورهم للأدب لم ينبن على مقولة الأجناس أصلا، وإنما قام على تصنيف ثنائي مرتبط بنوعية الصوغ الفني، غير متصل بطبيعة الجنس الإبداعي، فكان بذلك تصنيفا نوعيا أكثر مما كان تصنيفا نمطيا.

لقد أقام العرب أدبهم على منظوم ومنثور وبين الشعر والنثر فاصل فني بنائي قبل كل شيء، أما مضامين الدلالة فليس واحد منهما بأحق بها من الآخر، بل إن كان منهما ما هو خليق بالكل دون البعض، فإنما هو الشعر إذ بفضل طاقته الاستيعابية حاز السبق فقال عنه أهله: "الشعر ديوان العرب".

وبما أن كل إبداع في فن الأدب قد حام على فلك هذين المدارين، فقد تمسك بهما أجدادنا العارفون بشأن الصياغة الإنشائية، فتوسلوا بالمنظوم والمنثور كرة أخرى لما هموا بتعريف النص المقدس الذي تحدى العرب في أقوى خصائصهم المميزة: بلاغة اللفظ وفصاحة اللسان، فقالوا عنه: "إنه ليس بنظم ولا بنثر، وإنما هو قرآن".

وينتقد عبد السلام المسدي تلك الدراسات العربية الحداثية التي تحاول دراسة الأجناس الأدبية في تراثنا العربي، في ضوء مقاييس ومنهجيات نقدية غربية حداثية ظلما وتعسفا، وفي هذان يقول الدارس: "إذا عدنا إلى نقدنا العربي المعاصر وما يسعى إليه رواده من حداثة في الوصف والاستنطاق أيقنا أن من معضلاته الإجرائية اصطدام مقولة الأجناس الأدبية بإشكالية التعامل مع التراث الإبداعي في تاريخ حضارتنا العربية، وعديدون هم النقاد الذين غفلوا عن تلكم الحقائق الأولية، فلم ينجوا من مأثم الإسقاط النهجي حين توسلوا بمقولة "القراءة"، فتعسفوا المقروء متسترين برداء الحداثة، إذ بهم يسقطون على الأدب العربي أنماطا من التصنيف غريبة على روح التراث الحضاري الذي هو منتبه وحوض منشئه...

ومن جهة أخرى، فقد خصص رضيد يحياوي الجنس الأدبي، في كتابه (**نظرية الأنواع الأدبية**)، بمقالات ودراسات متنوعة، حيث تحدث في البداية عن استقلالية الأثر عند كروتشه، وتلاشي الأدب وتفرد الأثر عند موريس بلانشو، فاستقلالية النص والكتابة عند رولان بارت، ثم ناقش ثلاثية الملحمي والغنائي والدرامي كما ناقشها جيرار جنيت، ثم تناول قضية تصنيف الأنواع وتحولها بالدراسة والمناقشة والفحص.

وينطلق محمد العمري، في مقاله القيم (**المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي**)، من المقاربة البلاغية في دراسة الأجناس والأنواع الأدبية، حيث يدرس مجموعة من الأنواع الخطابية، كالخطاب الشعري، والفلسفي، والعلمي، والإقناعي، في ضوء تصورات البلاغة القديمة والجديدة، معتمدا في ذلك على دراسة المقام وأحوال المخاطبين في البلاغة الغربية والبلاغة العربية على حد سواء.

أما سعيد يقطين، في كتابه (**الكلام والخبر) (1997م**)، فيميز بين المقولات الثابتة، وهي الأجناس، والمقولات المتحولة، وهي الأنواع، والمقولات المتغيرة، وهي الأنماط، كما يقسم التجليات النصية إلى تجليات ثابتة، وهي الأجناس، أو معمارية النص، وتجليات متحولة، وهي الأنواع أو التناص، وتجليات متغيرة، وهي الأنماط أو المناصات.

وينطلق يقطين من مفهوم الصيغ الكلامية، "ونحن حين ننطلق من الصيغة أساسا للتمييز بين أجناس الكلام العربي، فذلك لأننا نعتبرها تقوم على مبدأ الثبات أكثر من غيرها من المعايير المعتمدة، فهي متعالية على الزمان واللسان، أنها ذات طبيعة لسانية وتداولية كما يرى جنيت، غير أن انطلاقنا منها لا يعني بالضرورة استنساخنا للأجناس أو للأصول الثلاثة الطبيعية التي ركز عليها الغربيون، وذلك لأننا لا ننطلق من محاولة رصد طرائق تمثيل الأحداث، بواسطة اللغة، كما نجد ذلك في البويطيقا الغربية، إننا ننطلق من منطلق مغاير تماما، فالصيغة نراها كامنة في طرائق التمثيل الكلامي بوجه عام، ونعتبر هذا الفرق جوهريا، لأننا في التصور الأول، نقابل بين: اللغة والعالم.

وثمة كتب أخرى تناولت نظرية الأجناس الأدبية بطريقة أو بأخرى، ومن أهم هذه الكتب كتاب (**الأدب المقارن**) لمحمد غنيمي هلال، وكتاب (**الأدب وفنونه**) لمحمد مندور، وكتاب (**الأدب وفنونه**) لعز الدين إسماعيل، وكتاب (**مقدمة في نظرية الأدب**) لعبد المنعم تليمة، وكتاب (**في نظرية الأدب**) لشكري عزي الماضي، وكتاب (**مشكل الجنس الأدبي في الأدب العربي القديم**) لمجموعة من المؤلفين، وكتاب (**بحوث في النص الأدبي**) لمحمد الهادي الطرابلسي، وكتاب (**الخبر**) لمحمد القاضي، وكتاب (**الفن الأدبي**) لغازي يموت، وكتاب (**في السرد الروائي**) لعادل ضرغام، وكتاب **(تداخل الأجناس الأدبية في الرواية العربية**) لصحبة أحمد علقم....

وثمة العديد من الدراسات المقالية المؤلفة والمترجمة التي اعتنت بقضية الأجناس الأدبية بالتعريف، والتأريخ، والتحليل، والتقويم.